محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثاني

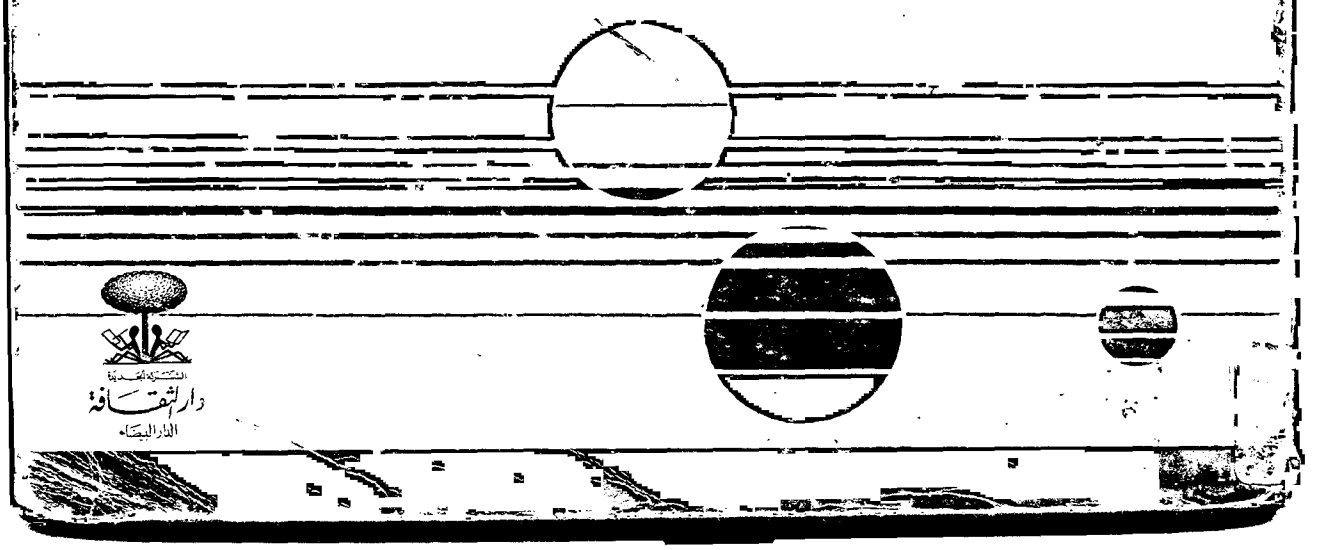

الشركة الجديدة
دار الثقافة
الدار البيضاء

محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثاني

الشركة الجديدة
دار الثقافة
الدار البيضاء

محمد بن تاويت
الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى
دار الثقافة
الدار البيضاء

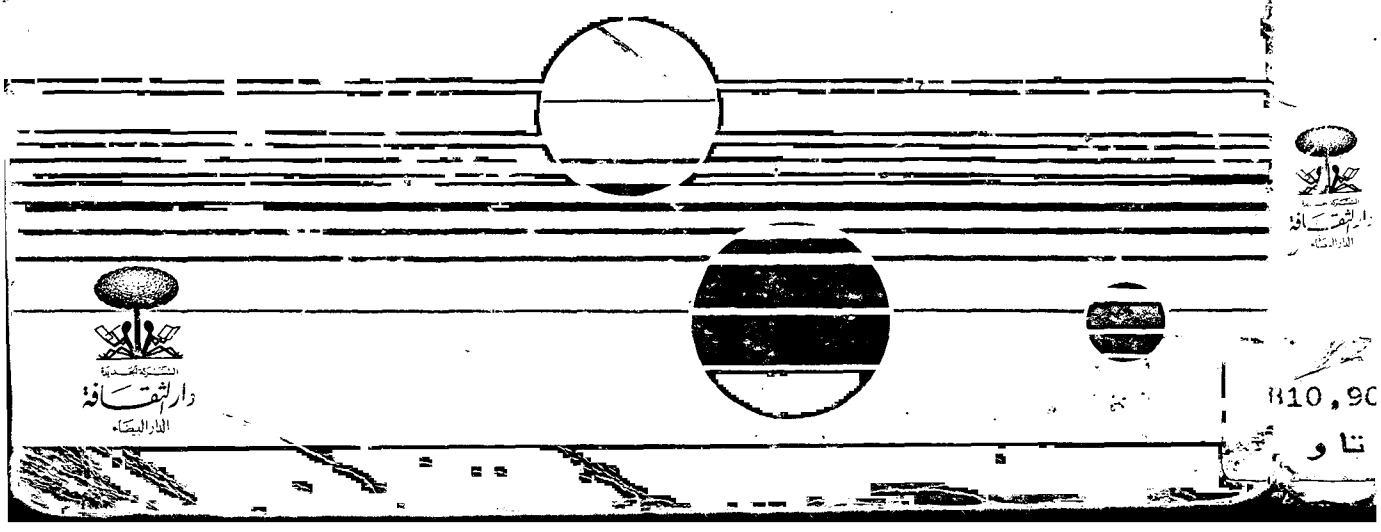

810,90
تاو

الوافـــي بالأدب العربـــي
فـــي المغـــرب الاقـــصى

محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثاني

نشر وتوزيع

دار الثقافة

34.32 شارع فيكتور هيكو
الدار البيضاء
الهاتف : 30·23·75

محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثاني

نشر وتوزيع

دار الثقافة
34.32 شارع فيكتور هيكو
الدار البيضاء
الهاتف : 30·23·75

جامعة القاضي عياض
مكتبة كلية الآداب
والعلوم الإنسانية - أكادير
رقم التسلسل 2085
رقم التصنيف
تاريخ الاستلام
08 مارس 1985

الطبعة الاولى 1403 هـ — 1983 م

جميع حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع

العهد المريني

عند اتصالنا بمالك ابن المرحل ، كنا ننتقل من عهد الدولة الموحدية الى الدولة المرينية ، التى كان يعمل بها هذا الأديب كاتبا وشاعرا والدولة الموحدية فى نزعها الاخير كما كان يعمل بها أديب آخر ، نتناوله فى بداية العهد المرينى وهو فى ركاب ملكه يعقوب المنصور ابن عبد الحق .

هذا الأديب يختلف عن معاصره ، بأنه لم يكن أندلسى الاصل ، بل كان مغربيه صميما من مكناسة ، ولم يكن منكبا على الأمداح النبوية ، بما فيها النعال والموالد ، بل كان منكبا على أمداح سادته من ملوك بنى مرين ، ولم يكن بتلك الصفة الملتزمة فى سلوكها بل كان يعاقر أو يقول فى معاقرة الخمر ووصف مجالسها .

الأديب هو عبد العزيز الملزوزى ، الذى له فى يعقوب المنصور المرينى أمداح ، وملاحم تاريخية ، على درجة لا يستهان بها ، فمن أمداحه للمنصور قوله بمناسبة عرضه على « يغمورسن » الصلح والتفرغ للجهاد بالأندلس :

أرى كل جبار بسيفك يصفر ... وكل مايك عن فعالك يقصر
وكل عزيز خاضعا متواضعا ... وكل يمان عن يمينك يمطر
تنام عيون الناس طرا وأنت فى ... صلاح العلا والخلق ما زلت تسهر
اضاءت بك الدنيا فزال ظلامها ... فأيامها من نور وجهك تسفر
وكان لدينا الدين قد ضاع حقه ... ولم يبق منه غير عين تحدر
بعثت الى يغمور بالصلح معلنا ... وقلت عساه بالبصيرة ينظر
فلم يغتبط بالصلح جهلا وغلظة ... فيا عجبا من خاسر كيف يخسر
اردت بأن تهديه للرشد والهدى ... وكيف يرى رشدا شقى معير
فإنك لا تهدى من أحببت للهدى ... أتدفع عنه ما عليه مقدر

ابـى الله الا ان يخطك بالهـدى	ويعطيك فى اخـراك ما هو اكثـر
ويحـرم يغمـورا جهـاد عـدونا	ويجعلـه فى بحـر باسك يغمـر
فأسبـق به فهـو الجهاد بعينـه	فحتى متـى فى الدين يغمور يقصر

الى آخر القصيدة التى تناهز خمسين بيتا ، ذكرت فى الذخيرة السنية .

ففى هذه القصيدة ، نجدها تتبع طريقة الأوائل من المتنبى وابن هانىء الاندلسى ، ومن حذا حذوهم فى مستواهم العالـى ، من شعرائنـا وفى مقدمتهم ابن حبوس والجراوى .

وهكذا فقد جمع بين السمو بالمعانى والاحتفال بجزالة الالفاظ ، فكل جبار يصغر بسيف ممدوحه ، وكل ملك يقصر عن غاياته ، وكل عزيز خاضع له متواضع امامه ، وكل سيف يمان لا يقطر بدمائه الا من يمينه ، فهنـا نجد الاحتفال بالالفاظ فى هذا الجناس بين اليمان واليمين أتى بعد الاحتفال بالمعانى ، فى تلك المقابلات المعدودة من الطباق فى البديع ، وتستمر فـى البيت الثالث ، بالنوم مع السهر ثم الرابع بالاضاءة والظلام ، وبعد هـذا يمضى قدما فى الاشادة بممدوحه ، يصفه بعظم الصفات ، وعلو الأخلاق ، وينال من خصمه يغمور الذى لم يستجب لما دعاه اليه المنصور من هدى الله ، ولا ضير على المنصور اذ لم يوفق فى هديه، فقد قال الله لنبيه « انك لا تهدى من أحببت » فضمن هذا بيته التاسع ، وفى البيت الحادى عشر ، عاد الى الاحتفال بالحلية اللفظية ، التى تحققت له فى لفظتى « يغمور ويغمر » فالمزوزى فى هذه الابيات ، ينظر الى المعانى واستوائها ، قبل أن ينظر الى الالفاظ وحليتها ، وهى على كل حال فى مستوى لا ينزل عن مستوى الفحول مـن شعراء الامداح عندنا .

بخـلاف الأمـداح التى جعلهـا سجـلا للاحـداث والوقائـع فهى منظومات تتسم بالسرد ، وتبتعد عن التجميل الفنى ، كمنظومتـه الرجزية ، التى توجه بها الى المنصور ، وافتتحها بقوله :

الحمـد للـه مغيـث الديـن	بالملـك المنصـور مـن مريـن

ثم يقول فيها :

سميتها من حسنها نظم السلوك	فى الانبيـا والخلفـاء والملـوك
وأذكـر الامـر عـلى الترتيـب	مختـصرا بأحسـن التقريـب
مـن عهـد آدم الـى زماننـا	أختمهـا بالغـر مـن املاكنـا

حتى تكون هذه الارجوزة تكتسب الفخر بها ملزوزة

واخيرا يختم الرجز ، بما توجه به الى المنصور فقال :

مولاى هذا رجز صنعته وفى الملوك منكم جعلته
سبقت بالتاريخ فيكم أولا وفقت فيه كل خلق عولا
لو لم تكن تؤرخ الدفاتر وتذكر الملوك والمآثر
لما علمنا سير الخلائف ولا أمور سائر الطوائف
وانما افعالهم مذكورة مذمومة فى الكتب أو مشكورة
فلنشكر الله على احسانه فأنت خير الناس فى زمنه
ثم السلام يا أمير المسلمين عليك يا خير نصير ومعين

فهذه المنظومة وان تناول فيها ، ما كان معروفا ، كتاريخ قديم ، تلتقى فيه الاساطير بالحقائق ، فالقصد على الحقيقة كان بنى مرين والمنصور منهم خاصة ، فيطيل النفس فيه ، ويفصل فى ذكر مجالسه ، وما يتخللها من صلاة ونحوها ، كما فى قوله :

كأنهم مثل النجوم الزهر وبينهم يعقوب مثل البدر
قد البس الوقار والسكينة وحل فى مكانة مكينة
حتى اذا ما حان وقت الظهر قام الى بيت الندى والفخر
يبقى الى وقت صلاة العصر ياتى بقصد نهيه والأمر
فينصف المظلوم ممن ظلمه ولم يزل الى صلاة العتمه
ثم يؤم بيته الكريما ويترك الوزير والخديما
ما ان ينام الليل الا ساهرا ينوى الجهاد باطنا وظاهرا
رأيته يصحبه التمكين مبارك طالعه ميمون
فامن الغرب من الفساد ونشر العدل على العباد
ولم يدع فى الغرب من يجور وزالت الاهوال والفجور
وخضعت مرين تحت قهره وأذعنوا لنهيه وأمره
ورفع الظلم عن الرعية وقمع الطغاة فى البرية
فهل سمعتم مثل هذى السيرة وهذه المآثر الاثيرة
كذاك كان فعله قديما بذاك نال الملك والتعظيما

انه رجز يصح أن نقارنه برجز ابن عبد ربه أيام بنى أمية فى

الاندلس ، او رجز ابى طالب ايام المرابطين ، وسياتى ابن الخطيب السلمانى ، يقلده فى رجزه التاريخى عن بنى نصر .

وللشاعر ملحمة ، يفصل فيها المواقع ، بذكر اماكنها واساطيلها ، ورجالها ، فيقول مثلا :

وقد ظهرت لاسطول الاعادى ... علامات تزيد به ارتيابا
فلما حل ربع طريف والى ... الى اجفانه الغر الكتابا
فيامر ان تجهز للاعادى ... اساطيله فاسرعت الجوابا
فجهزها ووافت باحتفال ... وباس منه راس الكفر شابا
هنالك شنجة وافى شريشا ... بليل ثم عاين ما أرابا
فوجه منه ارسال النصارى ... الى المولى ليسعفه الطلابا
يطالبه بعقد الصلح يعطى ... له ماذا اراد وما استجابا
ولم يقبل لهم قولا وآبت ... له الارسال حائرة خيابا
ولم يرددهم المولى سوى من ... حديث البحر لا يربو ارتيابا
فغرب جيشه المنصور بحرا ... الى افروطة الكفر انسيابا
فلما برز الاسطول فرت ... جيوش الكفر فى البحر انسرابا
وما الوت على متعذريها ... ولو سئلت لما ردت جوابا
فجاز الى الجزيرة فى سرور ... يجدد غزوة تبدى العجابا

ثم يقول بعد أبيات :

فبادر شنجة فى الصلح حتى ... تقرب من مدينته اقترابا
وجاء لقياه الاعلى واعطى ... هديات لمولانا رغابا
فكان هناك بينهما أمور ... ينسينى السرور بها الخطابا
واسرع شنجه للعقد حرصا ... واظهر فيه للمولى ارتغابا
فتم الصلح بينهما لعذر ... مبين واضح والسرغابا
فهذى جملة والشرح عندى ... سأودعه بايضاح كتابا
هنيئا يامرين لقد علوتم ... بنى الاملاك باسا وانتسابا
وفاخرتم بمولانا البرايا ... فاعطوكم قيادا وانغلابا
ابعد الفونش وابن الفونش يبغى ... رضاكم لا يخاف به العتابا
فحزب مرين حزب الله يحمى ... حمى الاسلام لا يخشى عقابا
اذا سلوا السيوف ترى الاعادى ... وقد حلوا الربى مدت رقابا

هم اشفار عين الملك تذرى عن الملك القتام أو الترابا
وهم مثل الانامل حيث مدت يد الامر التى تعطى الرغابا

فمن تاريخياته ، هذه نفهم أن الملزوزى كان أول من تناول بنى مرين بالتاريخ ، كما قال هو فى رجزه ، كما كان عبد الواحد المراكشى أول من تناول تاريخ الموحدين ، كما قال فى كتابه المعجب .

والنموذج الأخير ، من ملحمته ، يعد فريدا فى أدبنا ، على بساطته وتواضع تعبيره أحيانا ، ولا شك أن الشاعر نظر فيها ، من حيث الصياغة والقافية ، الى بائية جرير الطويلة :

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى ان أصبت لقد أصابا

وبحر الوافر انسب بالحماسة كما أن هذه القافية المطلقة ، انسب بسرد القصة ، وهو ما تنبه اليه الشعراء الجاهليون فى ذكر أيامهم (1) .

وقد أشرنا الى أن الشاعر كان ، على الاقل ، يصف مجالس الشراب ، وقد ظهر هذا لأول ما نعهد ، فى شعر سليمان الموحد ، ثم كان له صدى قوى فى شعر المزوزى ، الذى قال على الارتجال ، فى مجلس الأمير عبد الواحد ابن يعقوب المنصور ، فى يوم من أيام رمضان :

اليوم يوم مدامة وعقار وتبلغ الآمال والاوطار
أو ما رأيت الشمس أخفى نورها وتسترت عن أعين النظار
وبكى السحاب بدمعه فكأنه دنف بكى من شدة التذكار
والبرق لاح من الغمام كأنه سيف تألق فى سماء غبار
لا شىء أحسن فيه من نيل المنى بمدامة تبدو كشعلة نار
لولا صيام عاقنى عن شربها لخلعت فى هذا النهار عذارى
أو كان يجزى عنه صوم أوفدا ما صوم شهر فى صيام نهار
لكن تركت سروره ومذاقه حتى أكون عليه ذا اقرار

وكان هذا اليوم كما فى الذخيرة السنية :

« يوما قد استترت فيه السماء بالسحاب ، والنهار يبكى بالدموع ، كأنه عاشق صد عنه حبيبه ، وتعطلت دموعه ، وكان الرعد يهدر هدرته ،

(1) وأخيرا كان شوقى يتناول مدح الرسول وسيرته بهذا الوزن وبهذه القافية .

والبرق يحكى لوعته وزفرته ، وكان المجلس الذى كان فيه الامير ، قد فرش باصناف الرياحين ، والورد والبنفسج والخيرى والياسمين » وكان الامير اديبا شاعرا ، ذكر له شعر يفتخر فيه ، بالكتاب المذكور ، وهو اول شعر الافتخار ، يبدو فى شعرنا ، فيما نعلم .

ونختم القول فى شعر الملزوزى بهذه الابيات التى تأنق فيها غاية ، وهى :

اعلمت بعدك زفرتى وانينى ... وصبابتى يوم النوى وشجونى
اودعت اذ ودعت وجدا فى الحشا ... ما ان تزال سهامه تصمينى
ورقيب شوقك حاضر مترقب ... ان رمت صبرا بالاسى يغرينى
من بعد بعدك ما ركنت لراحة ... يوما ولا غاضت عليك شئونى
قد كنت ابكى الدمع ابيض ناصعا ... فاليوم تبكى بالدماء جفونى
قل للذين قد ادعوا فرط الهوى ... ان شئتم علم الهوى فسلونى

توفى الملزوزى عام سبعة وتسعين وستمائة ، قبل ابن المرحل بسنتين ، وكانت ـ رحمه الله ـ وفاته خنقا بسجن فاس لسعاية فيه

وقد تقدم أن الاديب الملزوزى عالج التاريخ بشعره ، فكان اول المغاربة ـ فى علمنا ـ يعالج التاريخ بالشعر ، كما كان اول المغاربة الذين تناولوا تاريخ المرينيين .

ثم كان معاصران له ، يتولى أحدهما تراجم الرجال ، من اندلسيين ومغاربة ، ويتولى الآخر تاريخ الاندلس والمغرب ، بنفس التناول من الاستقصاء والتحقيق ، وكلاهما تأخر وفاة عن الملزوزى بنحو عشرين سنة ، كما نظن ، وقد ادركا أواخر الموحدين . وكلا الرجلين ايضا كان من مراكش ، وحيا الله مراكش التى أمدتنا بالتواريخ التى ابتدأت بعبد الواحد واستمرت حتى اليفرنى .

أما الرجلان اللذان عنيناهما ، فهما محمد بن عبد الملك ، ومحمد او احمد ابن عذارى ، الجنديان المجهولان تقريبا . على أن الاول ، كان من ناحية التعريف به ، اسعد حظا من صاحبه ، حيث عرف به من معاصريه ، زميل له ذكره الدكتور عبد العزيز الاهوانى فيما نشره عن مخطوط لصلة

الصلة لابن الزبير ، من أوراق — لم تنشر فى المطبوع — تتصل بترجمة المؤلف (1) .

والمعروف أن كلا الرجلين ابن عبد الملك وابن الزبير ذكر صاحبه فى كتابه ؛ لانهما معاصران تجمع بينهما الصداقة ، كما يجمع بينهما الهدف من تناولهما لتلك التراجم مذيلين على غيرهما ومكملين وواصلين ، لما تقدمهما من كتب التراجم الاندلسية المختلفة فى زمنها والمتحدة فى قطرها

اذن من ابن عبد الملك المراكشى ؟

يعرف به زميله ابن الزبير فيما سبق ذكره فقال :

« محمد بن محمد بن عبد الملك الانصارى ثم الاوسى ، من اهل مراكش ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بان عبد الملك . روى عن الكاتب الجليل أبى الحسن على بن محمد الرعينى وصحبه كثيرا . وهو أعلى من عندنا رواية ، وعن أبى عبد الله محمد بن على بن محمد بن هشام وابى الوليد عن عفير وغيرهم .

واستجازنى قبل سنة ثمانين ، وبعد ذلك . فكتبت له مرارا ، واستوفى جملة من تواليفى استنساخا . وتكرر على سؤاله فيما يرجع الى باب الرواية .

وكان رحمه الله نبيل الاغراض عارفا بالتاريخ والاسانيد نقادا لها حسن التهدى جيد التصرف ، وان قل سماعه ، أديبا بارعا شاعرا مجيدا امتدح بعض كبراء وقته .

وكان مع نقده الاسنادى ذا معرفة بالعربية واللغة والعروض ومشاركة فى الفقه ... » .

ثم عرف به النباهى فى كتابه « المرقبة العليا » وهو معاصر لابنه ، أبى عبد الله ، وعنه استقى معلومات مفيدة ، واطلع « على كثير من المكتوبات الصادرة عن أبيه ،،، ما بين منظوم ومنثور » ثم ساق له قصيدة تعمد فيها المتشابه ؛ فيقول :

يا عاذلى دعا الملامة أو سلا عن صادق فى الحب مثلى هل سلا

(1) وذلك فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد .

كيف السلو ولى بحكم البين فى	مراكش جسم وقلب فى سلا
هيهات أسلو عهد حل لى بها	أسلا ابن حجر عهد جارة ما سلا
وافى الى على البعاد كتابه	فبمهجتى أفدى كتابا أرسلا
أوردت من مرآه روضا مونقا	ووردت من فحواه ماء سلسلا
طرس كنحر معذر ابدت به	صدغاه وشى الحسن حين تسلسلا
الحبتى رحماكم فى موقف	القى يد استسلامه واستبسلا
الحبتى رحماكم فى نازح	بكم اليكم فى الدنو توسلا

وهى فى تسعة عشر بيتا يخاطب بها مديقا له ينعته بالفضل والأدب .

وهذه القصيدة تشبه قصيدة لأبى المطرف ابن عميرة ، كتب بها من سلا الى تلميذ له بستة ، مطلعها :

يا صاحبى وللفراق صبابة	عما بقلبى من لواعجها سلا

ويقول فيها :

فمحدث باك لآخر مثله	بحديث شوق قد رواه مسلسلا

وكذلك نجد التلاعب بكلمة « سلا » فى أبيات له يقول فيها :

لم يصب قلبى الى سواها	يوما ولم يسل عن سلاها

لم نات بهذه الابيات ، وقد توجهنا الى النشاط التاليفى ، الا لنبين أن ابن عبد الملك ، كان الى جانب نثره ، ناظما كذلك وان كان هذا النظم لا يدل على سليقة شعرية فى صاحبه ، فهو نظم العلماء الادباء ، تتحكم فيه الحذلقة اللفظية غالبا ، ويسوده التصنع ويثقل بنحو « حل لى بها » .

وذكر ابن جزى فى ترتيبه لرحلة ابن بطوطة ، ان ابن عبد الملك ذيل بيتى المالقى فى المتشابه كذلك ؛ وهما :

مالقة حييت يا تينها	فالفلك من أجلك يا تينها
نهى طبيبى عنك فى علة	ما لطبيبى عن حياتى نهى

فقال مذيلا :

وحمص لا تنس لها تينها	واذكر مع التين زياتينها

فاذا نظرنا الى شعره فنجد تلك الابيات التى ، بالاضافة الى تلاعبها

اللفظى ، تبدو عليها اصطلاحات الحديث .

وفى البيت الثالث من القصيدة اشارة الى قول امرىء القيس :

« كدأبك من أم الحويرث قبلها وجاراتها أم الرباب بمأسل »

ومع هذا فكان يقرض الشعر مادحا بعض الكبراء والامراء ، كما نص على ذلك ابن الزبير ، وقد وردت له أبيات أخرى باحدى التراجم ، من قصيدة فى أبى العباس المليانى منها :

يا من يقيس به سواه فى الندى الغيث فى النظر اعتبار الجامع
هذا يجود فى الموانع كثرة وسواه ضن مع ارتفاع المانع

وفى هذا استغلال اصطلاح بلاغى .

ومن شعره أيضا قوله فى مراكش التى تولى بها القضاء :

لله مراكش الغراء من بلد وحبذا أصلها السادات من سكن
ان حلها نازح الاوطان مغترب اسلوه بالانس عن أهل وعن وطن
عن الحديث بها أو العيان لما نشا التماسك بين العين والأذن

فهذا شعر لابأس به يطلعنا على مداه فيه وقد نسب اليه فيما تقدم .

والمؤلف على أخلاق المراكشيين من عزوف وبأو تسببا فى عزله عن القضاء فمات غريبا بتلمسان عام 703 .

أما نثره فيصح أن نستأنس فيه بمقدمة كتابه المذكور ، وهى :

الحمد لله الذى أعلى معالم العلم بأعلامه ، وأحلى موارد الفهم لأولى أحلامه ، ويسر كلا منهم لما يسر له من أقسامه والهمه الى التمسك بأسباب سعادته ؛ فسعد بالهامه ، واتسم بما به ارتسم . من الانتظام فى سلك حزبه المفلح ، فافلح باتسامه وارتسامه وانتظامه ، وصرف اليه دواعى شغفه به وغرامه ، ووقف عليه متوالى اهتباله واهتمامه .

فمنهم من التمسه بمستقره ، معملا صدق جده وتصميم اعتزامه ، فظفر من مبتغاه واطفاء أواره وارواء أوامه ، بتسديد مرامى مرامه . ومنهم من آثر فى ابتغائه ظعنه على مقامه ، وهجر ليحظى بوصله ملاذ طعامه وشرابه ومنامه ، وعمر باقتباسه آناء لياليه وأيامه ، من شهور

عمره واعوامه ، اعتناء من الله سبحانه بابلاغه من اتمامه ، وحفظا لـــه من لواحق انقراضه وانصرامه ، واجزالا لحظوظ أهله منه عند اقتسامه ، حتى يبلغه السلف الى الخلف فيتلقاه منقولا ومعقولا مؤتما عن مرتضاه لا ئتمامـــه .

وازكى صلوات الاه وأذكى سلامه ، على سيدنا محمد نبى الهـــدى وامامه ، وماحق ضلال الكفر وماحى ظلامه ، الذى أشاد بفضل التعلـــم والتعليم فى جلى متاله بعلى متامه ، وعلى آله الاخيار وصحبه الابـــرار الموفين بذمامه ، المقتفين آثاره فى نقضه وابرامه ؛ ما انهل غيث مـــــن غمامه ، وافتر عن زهر مبسم كمامه .

أما بعد فانى قصدت فى هذا الكتاب الى تذييل صلة الراوية أبى القاسم ابن بشكوال تاريخ الحافظ أبى الوليد ابن الفرضى ، رحمهما الاله فى علماء أهل الاندلس والطارئين عليها من غيرهم بذكر من أتى بعده منهم ، وتكميلها بمن كان من حقـــه أن يذكـــراه فأغفـــلاه ، وقبـــل الشروع فى ايـــــراد ما قصدت من ذلك ، فلابد من ذكر مقدمة تطلع على وجه العمل الـــــذى اعتمدته ، وترشد الى المسلك الذى فيه سلكته سائلا من الله سبحانـــه الصواب فى القول والعمل ، وانجادا على ما يعصم من مواقعة الخطـــأ والخطل ، لا (1) مامول الاخيره . .

ويقول : « ولما كان القصد بهذا الكتاب وجه الله تعالى ، رجوت له الشياع وسير الركبان الى مصور البسيطة مشرقه وغربه ، وعموم نفع أهل العلم فى جميع الآفاق بما اشتمل عليه . ولما كان مما تضمنه نسبـــة المذكورين فيه الى بلدان الاندلس الشهيرة ، وقراها الخاملة ، أمكن امكانا قريبا وقوعه الى من ربما تغيب عنه معرفة تلك الاماكن أو يتشوف الـــى معرفتها أو تقييدها وضبطها ، فاذا لم يجد سبيلا الى علمها ، أداه ذلك الى تحريفها عند النطق بها أو تصحيفها والاخلال حال النقل وجهل حدودها ، ولا سيما عند أهل البلاد الشاسعة عنها ، بل غير المصاقبة لها . . . .

الى أن يقول فى تلك المقدمة : وجمعت هذا الكتاب مما افترق فيما

---

(1) أثبتنا هذا الحرف الذى سقط من الاصل ، كما سقط غيره بعد « سبحانه » بمقدارکلمتين أيضا كما ذكر المحقق الدكتور بنشريفة مثبتا واو العطف لكلمة « الصواب » على ذلك .

لا أحصيه عددا من برامج روايات الشيوخ الجلة أيمة هذا الشأن كلها وافية بالشروط المعتبرة في توثق النقل منها ، اذ معظمها بخطوط جامعيها وسائرها بخطوط المعتمد عليهم من رجال هذا الفن ومقابلتهم وتصحيحهم ، الى ما نقلته من مقيدات ذوى العناية بهذه الطريقة من موالد ووفيات ، ورفع انساب وتبيين أحوال الرواة وشبه ذلك من الفوائد ، مع ما تلقيته من مشايخى الذين أخذت عنهم شفاها وما التقطته من طبقات القراءات والاسمعة على الشيوخ أو منهم ، والتواريخ على تفاريق مقاصدها . وكل ذلك مما انسجت عليه روايتى بين سماع وقراءة ومناولة واجازة ، وغير ذلك من ضروب التحمل .

وبعد ما تعرض لنظام الحروف المعروف فى سياق التراجم والذى كان متبعا فى الشرق ، كما كان متبعا فى الاندلس والمغرب ، ونص على مآخذ المترجمين من الاندلسيين ، وعلى رأسهم ابن الأبار الذى اتهمه بالاغراض والتحامل على من عرفوا بالغرباء عندهم ، أتى بهذه الابيات ، التى ضمنها نظامه الحرفى فى تراجمه ، وذلك بتوالى الحروف التى ابتدأت بها كلماتها ، هكذا :

الم بروضى تجنى ثم جنى حيا خلا در ذى رى زكا سقيه شربا
صفا ضمن طل ظل عد غنى فشا قرى كل له من نهى ودق همى سحبا

وهذا الترتيب هو ترتيب المعجم المشرقى الذى آثره المؤلف كما قال ، لصحة اعباره ، ولا شك أن الكلمة الأخيرة غير معتد بها .

فالكتاب اذن ، متجه الى تراجم الأندلسيين أساسا ، وبالذات علمائهم وادبائهم ؛ بالرغم من كون صاحبه مغربيا . ومجاراة للمؤلفين منهم ، صار يذكر المغاربة فى نطاق الغرباء .

ومما تقدم نفهم المقصود من عنوان الكتاب وانه يجامع كتاب معاصره ابن الزبير « صلة الصلة » فكلا الكتابين منصب على كتاب « الصلة » لابن بشكوال . وهذا بدوره منصب على كتاب « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس » لابن الفرضى .

نعود الى الامعان فى فن المقدمة ، فأول ما يواجهنا فيها هذه الاسجاع التى أخذ بها نفسه المؤلف أخذا منهكا ، فلم يرم فيها على طولها حرف الميم

المسبوق بألف ساكن والمتصل بضمير الغائب ؛ مفردا مذكرا ، فاقتضاه هذا اقتناص نحو ثلاثين من الكلمات التى اقام عليها تباعا هذه السجعات .

وكأنه لم يرد أن يفهم القارىء هذا النصب الذى تحمله فى ذلك ، فأرفق به كلمات أخرى أتت نافلة بجوار تلك المسجوعات ؛ مثل « باتسامه وارتسامه » و « وطعامه » .

والمؤلف المراكشى يدل بقدرته على التنوع فى نحو « معالم العلم بأعلامه » « واتسم بما به ارتسم » من الانتظار ... باتسامه وارتسامه وانتظامه » و « اهتباله واهتمامه » « واطفاء أواره وارواء أوامه » و « مرامى مرامه » .

وقد يوقعه هذا فى تكلف صارخ مثل « منقولا ومعقولا مؤتم عن مرتضاه لا ئتمامه » .

الى جانب هذا كله فهناك محسنات لفظية لا تكاد تخرج عن ذلك فى المحسنات المختلفة من نحو « أعلى وأحلى » « وأعلامه وأحلامه » « ماحق وماحى » « وأزكى وأذكى » .

و « مقاله ومقامه » و « الاخيار والابرار » زيادة عما تقدم ذكر آنفا .

أما المحسنات المعنوية فتبدو على بساطتها فى نحو « ظعنه عن مقامه » و « هجر ليحظى بوصله » و « آناء ليالة وأيامه » و « السلف الى الخلف منقولا ومعقولا » و « نقضه وابرامه » .

أما من التراجم فيقول فى ترجمته لاحمد بن عبد الله ابن عميرة المخزومى :

كان أول طلبه العلم ، شديد العناية بشأن الرواية ، فأكثر من سماع الحديث ، وأخذه عن مشايخ أهله ، وتفنن فى العلوم ، ونظر فى العقليات وأصول الفقه ، ومال الى الأدب ، فبرع فيه براعة ، عد بها من كبار مجيدى النظم ، وأما الكتابة فهو علمها المشهور ، وواحدها الذى عجزت عن ثانيه الدهور ، ولا سيما فى مخاطبة الاخوان ، هناك استولى على أمد الاحسان ، وله المطولات المنتخبة ، والقصار المقتضبة ، وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالاشارة الى التاريخ ، ويودعه الماعات بالمسائل العلمية منوعة

المقاصد ، تشهد بتمكنه فى المعارف .

فنثره اذن ، دون شعره ، تواضعا وتمسكنا

واختياراته للنماذج الأدبية وأحكامه عليها لا تختلف كثيرا عن هذا ، كما تقدم له ازاء لامية ابن حبوس :

« فعـــل امـــرىء دل على عقلـــه والفـــرع منسوب الـــى أصلـــه »

وكحكمه على سينية متواضعة وردت فى ترجمـــة أحمد ابن المفـــرج الاموى رثاه بها أبو أمية ابن عفير ، فوصفها « بقصيدة فريدة » .

ولا نرى كونها فريدة الا فى تكلفها الذى طالعنا به استهلالها بالبيت :

اين الكباء واين « عرف الآس » ممـــا حوتـــه كمائـــم الارمـــاس

وودعنا فيها ببيتها الأخير :

حتى يرف عليه مـــن زهر الرضى عرف يبذ شذاه « عرف الآس » (1)

هذا ما يتصل بابن عبد الملك أما ابن عذارى ، فلا نعرف له الا ترجمة اجتهد فيها دوزى ونقلها العباس ابن ابراهيم والزركلى فى اعلاميهما . وهى لا تقول لنا أكثر من كونه مراكشيا وان كان أصله الاول أندلسيا ، وأنه عاش حتى نهاية القرن السابع تقريبا (2) ، وهو مؤلف « كتاب البيان المعرب » فى اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب .

وكتابه هذا كان فى أصل تصميمه يقع فى ثلاثة أجزاء ، كما يفصـــح هو بذلك فى المقدمة ، وقد طبع جلها فى عدة أجزاء انتهت أخيرا الى خمسة ، ولكنها حتى الآن مازالت ناقصة . والنصوص الادبية منها بالخصوص غيـــر محققة ، يقول فى مقدمة الكتاب :

---

(1) ويبدو أنه كان مولعا بنقد معاصريه بالخصوص ، كما ينبىء عن ذلك قول ابن رشيد فيه ، وقد نقد قصيدة لمالك بن المرحل ، حيث وصفه بأن عادته كانت « انتقاص الافاضل واعتساف المحامل ، وترك الصافى الزلال ، وورود الكدر والعكر من المناهل » .

(2) بل من كتابه هذا يفهم أنه قد عاش بالعقد الثانى من المائة الثامنة ، كما هو وارد أواخر الجزء الثالث الذى ساهمنا فى تحقيقه .

الحمد لله مصرف الاقدار ومحيى الآثار ، والمتعالى عن الاشبـــاه والانظار ، المتنزه عن تمثيل الاوهام وتكييف الاذكار ، الذى احتجب بحجاب عزته وقدرته ، « فلا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » الذى خضعت لهيبته وعظمته رقاب الاكاسرة والجبابرة والاشرار ، العالم بالاكوان على اختلافها ، والحوادث مع تشتيت أوصافها « وكل شيء عنده بمقدار » مكور الليل على النهار والنهار على الليل ما جرى الفلك الدوار ،، وجعلهما آيتين بينتين للتفكر فى العظة (1) والاعتبار ، وخص الانسان بفضل النظر والاستبصار، فقال جل وتعالى : « فاعتبروا يا أولى الابصار » وعلمه ما لم يكن يعلم ، وكرر عليه ما لم يلحق من أنباء القرون الماضية فى الأزمان والاعصار ، وأراه متقلبهم فى هذه الدنيا الفانية التى جعلها لهم دار انتقال ، ومفر وزوال ، وجعل الايام بينهم دولا ، والاقوام بعضهم من بعض بدلا الى أن يقول : وبعد جعلنا الله ممن نظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر ، فان خير ما شغلت به الافكار والاذكار ، وتحدثت معه بالليل والنهار حفظ ما أفاد من العلوم والأخبار ، وان أولى ما ريضنا به النفوس البشرية مجالسة العلمـــاء والاخيار ، ومذاكرة الادباء ذوى الهمم وعلو المقدار الى أن يقول : ولما كنت كلفت بأخبار الخلفاء والايمة والامراء بالبلاد المشرقية والمغربية وما والاهما من الاقطار ، وولعت بالمناظرة فى ذلك مع الفضلاء والاجلاء ذوى الاقدار والاخطار ، طلب بعضهم الى ممن يجب اكرامه على أن أجمع له كتابا مفردا فى أخبار الملوك الغربية على سبيل الايجاز والاختصار ،،،، فجمعت له فى هذا الكتاب نبذا ولمعا من عيون التواريخ والاخبار ،،، فيما مر من الازمنة والاعصار فى بلاد المغرب وما والاها من الاقطار ،،، فنقلت ـــ والله ولي التوفيق ـــ من تاريخ الطبرى والبكرى والرقيق والقضاعى، ومن كتاب الذيل لابن شرف ومن كتاب ابن ابى الصلت ، ومن المجموع المفترق ، ومن كتاب بهجة النفس وروضة الانس ، ومن كتاب المقباس والمقتبس والقبس ومن مختصرى عريب وابن حبيب ، ومن درر القلائد وغرر الفوائد ، ومن القلائد والمطمح ، لابن خاقان ، ومن كتاب ابن حزم ، وذخيرة ابن بسام ومـــن اخبار الدولة العامرية لابن حيان ، ومن كتاب تقصى الأنباء فى سياســـة الرؤساء ، ومن كتاب الانوار الجلية فى الدولة المرابطية ، ومن نظم الجمان فى أخبار الزمان ، لابن القطان ، ومن كتابى الاشيرى والبيذق ، وكتاب يوسف

(1) لعلها « العظمـــة » .

الكاتب ، وكتاب ابن صاحب الاصلاة أبى مروان ، ومن كتاب ابن رشيق ، ومن كتاب وجدته أو تعليق ، ومن شيوخ أخذت الاخبار الوقتية عنهم بتحقيق .

وحول تصميم الكتاب يقول فى المقدمة كذلك :

أما الجزء الاول فاختصرت فيه أخبار افريقية من حين الفتح الاول ... ثم أخبار أمرائها من ولاة الخلفاء الامويين ... ومن قام بافريقية من الصفرية والاباضية ، ثم من قام فيها بالدولة العباسية ، ومن ملكها من بنى الاغلب واخبار بنى عبيد الشيعة واخبار زناتة والصنهاجيين وغيرهم ... الى حين انتقال العبيدية الى البلاد المصرية ، واستخلافهم صنهاجة على افريقية ، ثم خلع صنهاجة لهم واستيلائهم على افريقية ، ونذكر فتنة العرب واسبابها ودخولهم الى القيروان وحربها ، وتنقل صنهاجة الى المهدية ... وما اشتهر فى ذلك من الاخبار عنهم ، من ملوك المناديين والحماديين ، الى حين ظهور الموحدين ... وذكرت أخبار المدراريين السجلماسيين ، والامراء الادريسيين وأخبار البرغواطيين والزناتيين ... ومن ولاة الخلفاء الامويين الاندلسيين ... الى حين ابتداء الدولة اللمتونية المرابطية .

والجزء الثانى اختصرت فيه أخبار جزيرة الاندلس ... من حين الفتح ، ثم من وليها من الامراء للخلفاء الامويين بالمشرق ، ثم من قام بها من العرب الفهريين ، الى حين دخول الخلفاء الامويين فى ابتداء امرهم ... الى انقضاء مدتهم بعد ذكر حجابهم العامريين ومآثرهم الى حين انقضاء الدولة العامرية وقيام الفتنة البربرية ، وذكرت فيه اخبار ملوك الطوائف ... الحموديين والهوديين والجهوريين والعباديين وفتيان العامريين والصمادحيين والزناتيين والبكريين والافطسيين والصنهاجيين ...

والجزء الثالث اختصرت فيه أخبار الدولة المرابطية اللمتونية ... واستيلائهم على مملكة امراء المغرب والاندلس ... وتغلبهم على مملكة كل منهم ، وما تسنى لهم فيها من الفتوحات ، الى حين ابتداء دولة الموحدين وظهورهم ... ثم ما كان بين امراء الدولتين من مقاتلات ومنازلات ... الى حين انقراض الدولة المرابطية .. ثم ما تخلل بعد ذلك للموحدين من النصر والتأييد فى البلاد الافريقية والاندلسية ، الى حين انقراض دولتهم ... وذكرت

الدولة الحفصية الموحدية الهنتاتية فى البلاد الافريقية ، والدولة الهودية المتوكلية والنصرية الاحمرية فى البلاد الاندلسية ، والدولة السعيدة المرينية فى البلاد الغربية ... واستيلاء الامارة اليوسفية المرينية على حضرتهم (اى الموحدين) المراكشية ، وذلك على مرور السنين الى عام 667 .

وهكذا نجد المؤلف قد وضع لكتابه مخططا تأليفيا ، بالمعنى الدقيق ، فهو أقدم كتاب فى التاريخ المغربى بين أيدينا . صحيح ان كتاب المعجب سبقه الى ذلك ، ولكن هذا الكتاب يعد كتاب أدب وتاريخ على طريقة السرد . وبعد ما ذكر انه جعل كتابه فى ثلاثة أجزاء ، قال : وذكرت بعض البيعات والرسائل السلطانية ، وما تعلق بها ، وكان بسببها من الوقائع المذكورات ، والامور المشهورات .

وهذه المصادر التى اعتمد عليها بعضها معروف وبعضها غير معروف ، ككتاب الأنوار الجلية . وبعضها لا توجد الا أجزاء منها ككتابى ابن صاحب الصلاة وابن القطان والمقتبس لابن حيان .

والى جانب ما نستفيده من كتابه فى التاريخ ، نستفيد معلومات أدبية ونصوصا لها أهمية قلما توجد فى غيره ، مما بيدنا من كتب . وهى ظاهرة عامة، نجدها فى كتب المراكشيين منذ كتاب الاستبصار فالمعجب والتشوف ثم الذيل والتكملة ، لا تختلف فى هذا عن مؤلفات الاندلسيين ويلاحظ انه الف كتابه استجابة ، لطلب بعضهم منه ذلك ، وهذا ما وجدناه فى مقدمات الكتب السالفة الذكر ، ما عدا التكملة منها والتشوف .

وفيما يخص أسلوب الكتاب ، فيما عدا المقدمة ، فانه يضم أمشاجا من الاساليب ، حافظ عليها هذا المؤرخ النزيه ، ولاشك أن تحريه دفعه الى هذه المحافظة ، التى ينساق لها المؤرخ ، بصفة خاصة ، كما نجد لذلك أمثلة فى كتاب الكامل لابن الأثير وغيره ، وقد اكتفى ابن عذارى ، بالنص على مراجعه ومصادره عامة فى المقدمة ، ولم ينص فى تلك الاساليب التى أتى بها على أصحابها ، اللهم الا ما كان فيها من نصوص أدبية ، كالرسائل والبيعات ، وان كان بعضها قد تعرض للاختصار من قبله أو من قبل الناسخ كما نجد فى البيعة التى كتبها ابن عميرة عن مكناسة التى كان قاضيها ، ثم البيعة التى كتبها لهم الكاتب ابن عبدون ، نعم : ان ابن عذارى قد ينص

على الاختصار ، كما فعل فى رسالة الامير ابى زكريا الحفصى الى اهل اشبيلية .

أما ما وقع فى القصائد ، من اختلاف أو تحريف فالغالب كونه من النساخ ، الذين اعتوروا هذا الكتاب بعملهم ، وشاعت بهم نسخ منه

والملاحظ انه يكثر من النصوص الشعرية أضعافا مضاعفة اكثر مما يفعل فى النصوص النثرية . ولعل ذلك راجع الى وفرة الاولى فى تلك المصادر التى استقى منها والمراجع التى استفادها ، بل ان وفرة المحصول الشعرى من طبيعة ما يحتفظ به الادب العربى منذ جاهليته .

ومهما يكن فان القصائد التى ذكرت بكتاب البيان ، يمكن أن تملأ سفرا متوسطا ، وفيها من طوالها كثير ، مثل قصيدة ، أبى موسى هرون بن هرون ، فى رثاء اشبيلية ، ووصف ما نالها من الكرب الشداد ، عند سقوطها بيد النصرانية سنة ست وأربعين وست مائة ، فهذه تقع فى خمسة وستين بيتا ، أتى الكتاب عليها برمتها ، ومطلعها :

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى ... لم يرع فيك الردى الا ولا ذمما
جرت عليك يد للدهر ظالمة ... لا يعدل الدهر فى شيء اذا حكما
ما كنت أحسب أن الحادثات اذا ... همت بك السوء لا تلقى لك السلما
ولا توهمت ذاك الحسن يطمسه ... ريب الزمان ويكسو نوره الظلما
قد كان حسنك فتان الشباب فقد ... أصبت عوضت منه القبح والهرما
يا جنة زحزحتنا عن زخارفها ... ذنوبنا فلزمنا البث والندما
يا سائلى عن مصاب المسلمين بها ... أصخ لتسمع أمرا يورث الصمما
لما تفرقت الاهواء واضطرمت ... نار البغاة فقامت للردى علما
ونوزع الأمر أهلوه وقام به ... من لم يجد قدما فيه ولا قدما
ثارت حفائظ للتثليث فابتدروا ... وأيقظوا من سنات الغفلة الهمما
وانشروا ميت الاحقاد بينهم ... ولو أطاقوا لعمرى أنشروا الرمما
ويمموا حمص فى جمع يضيق به ... ذرع الفضاء فسوى الوهد والاكما

وفى هذا الحصار يسوق ابن عذارى وصفا مؤثرا ، لعله مما حافظ عليه فى أصله فقال :

أحدقت النصارى بمدينة اشبيلية ، وحاصروها برا وبحرا ، واذاقوا اهلها شرا ، وكان نزولهم عليها ، ووصول جموعهم اليها ، فى شهر جمادى الاولى من العام المذكور ، فاشتد فى هذه السنة حصارها ، وتملات منهم انظارها واقطارها ، وأخذوا خلقا كثيرا من أهلها ، واختطفوا فى الاجفان بعض أطفالها ، وضيقوا بها غاية التضييق ، ورموا الحجارة بالمنجنيق ، وعدموا المرافق كلها ، قليلها وجليلها ، الا ما كان فى بعض ديار الاغنياء ، فانهم كانوا يحتاطون فى تلك الامور ، مثل الفقيه القاضى ابن منظور ، فانه كان يطمع فى اقلاع النصارى ، عن المدينة فأمر الناس بالقتال والرمى بالنبال ، والناس مع ذلك حيارى ، يمشون سكارى وما هم بسكارى ، ومات بالجوع خلق كثير ، وعدمت الاطعمة من القمح والشعير ، وأكل الناس الجلود ، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود . ولما انتهى باشبيلية شدة الحصار ، وعدموا الانصار من الامصار ، وصاروا قبضة فى يد أعداء الله الكفار ، خاطبوا أمير المومنين المعتضد بالله السعيد ، وكافة المسلمين من أهل عدوة الغرب ، يستصرخونهم ويعرفونهم بما نالهم من الجهد العظيم ، والكرب الشديد الأليم ، ويرغبونهم فى نصرتهم ويحرضونهم على جهاد أعداء الله الكافرين ، فمن ذلك قصيدة يرق لها القلب القاسى ، وتأتمر لها الجبال الرواسى ، وهى القصيدة المذكورة سلفا .

ويبدو أن هذا الوصف كان لكاتب معاصر للكارثة ، والغالب أنه كان من أهل اشبيلية آنذاك ، لما تتسم بها من جزئيات ، مثل ذكر القاضى ابن منظور ، وما كان يطمع فيه من اقلاع النصارى ، ويأمر به المدافعين من قتالهم ورميهم بالنبال والناس مع ذلك حيارى .

فهذا مثال من تلك الأمثلة التى وردت فى سياق الكتاب ، فاختلف بها أسلوبه من آن لآخر ، وما بيدنا من أجزائه يختتم باختصار الخبر عن حركة الواثق بالله ، ادريس بن أبى عبد الله بن أبى حفص عمر بن عبد المومن الى السوس ، وفى هذا المساق نجد عبارة « قال المؤلف أخبرنى بعض العارفين » ، مما يدل على أنه يستعمل أسلوبه فى سرد الحوادث ، وهو فيها مطيل يشبه باطالته المؤرخ ابن حيان الأندلسى ، وهذا واضح بين فى خلافة الواثق المذكور ، حيث نجد النص على اليوم المسمى من الشهر كذلك وبالتاريخ المعين ، بل نجد النص على بكرته مثلا من أول شوال ،

ثم الثانى منه الى الثامن فالتاسع وما كان بعد صلاة العصر، وهكذا الى الثالث والعشرين منه ، ثم غرة ذى القعدة الى الثالث منه فالتاسع ، وفى سنة خمس وستين وستمائة ، نجده كذلك يقول « أخبرنى من أثق به » وبعد ذلك يأتى بقصيدة الرندى فى رثاء الاندلس، ولا يذكر منها الا سبعة عشر بيتا ، ثم بعد صفحة ينقطع سياق الكتاب ، دون نهايته التى كانت حسب ما ورد فى المقدمة سنة 667 أى بانقراض الدولة الموحدية واستيلاء الامارة اليوسفية على حضرتهم المراكشية ، كما قال

ولا شك انه يقصد بهذه النسبة أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق ، الذى فتح مراكش سنة 668 بصفة نهائية وكان يحاصرها من قبل ويستبعد أن يكون المقصود فى المقدمة بكونه الحامل له على التأليف ، وان كان يعقوب معروفا بالتشجيع عليه ، وله نظم الملزوزى — كما تقدم — منظوماته وربما كان ابن ابى زرع ضمن المشجعين من قبله أيضا ؛ فان ابن عذارى أهمل من تاريخ ملكه نحو عشرين سنة ، كانت حافلة بالانتصارات أهمل من تاريخ ملكه نحو عشرين سنة ، كانت حافلة بالانتصارات والفتوحات فى الاندلس وافريقية . ويستغرب لم وقف المؤلف عند هذا التاريخ ، وقد عاش بعده نحو نصف قرن أو يزيد ، ربما ، فلا شك انه قصد الى الوقوف عند نهاية الدولة الموحدية ، بسقوط مراكش فى يد بنى مرين ، وقضائهم على آخر الموحدين وهو أبو دبوس ادريس بن محمد بن ابى حفص بن عبد المومن الموحدى .

كما يستغرب أن يهمل ذكر ابن عذارى عند من نقلوا عن كتابه ، مثل المقرى الذى يذكره ببعض مؤرخى المغرب فى نفح الطيب .

والغالب أن المؤلف كان مقربا من دولة المرينيين . ودليلنا ما نجده فى كتابه من التنويه بها والدعاء بالعز والنصر والتأييد لملوكها ، فى كل مناسبة مثلا نجد قوله « وكان ابتداء ظهور بنى مرين أعزهم الله تعالى فى سنة عشر وستمائة » (1) وحتى لو كان كان هذا مما حافظ عليه منقولا فدلالته قوية على أن ضلعه كانت معهم .

ويقول فى موقعة لهم « وانصرف عثمان بن عبد الحق واخوته

1) الصفحة 244

وعشيرته .... ووجوههم تتهلل تهلل الاصباح ، ولم يزالوا فى بلاد الغرب ظاهرين ، وبأعدائهم ظافريـــن ... وذلك أنه لما نور الله بصائر بنـــى عبد الحق ... فأخلصوا لله نياتهم ، التى هى رأس أعمالهم ... (1) ·

« وكان موضع نزول بنى مرين أعزهم الله » (2) ·

« فزاد بنو مرين ... فى الغرب علوا وظهورا ، اذ ما زالوا فيـــه ظاهرين وبأعدائهم ظافرين (3) ·

« بعث ... يغمراسن ... الى ابى الحسن السعيد ... عاهده على قتال بنى مرين ... فأبى الله ذلك ، بل مكن لهم فى الارض ، وأهلهم لاقامة السنـــة والفرض (4) ·

« توفى الامير أبو معرف بن عبد الحق ... وتقدم بعده أخوه الامير المعظم أبو يحيى بن عبد الحق (5) ·

« والامير المعظم أبو يحيى هنالك ... وبنو مرين أعزهم الله قـــد اجتمعت عليهم (6) ·

« وهو أول فتح بنى عبد الحق أعزهم الله تعالى فى تملك قواعـــد البلدان (7) ·

« وكان أهل فاس استعدوا لقتال بنى مرين أعزهم الله (8) ·

« فراى بنو عبد الحق بسديد رأيهم ونجح سعيهم (9) ·

« وذلك بما وهبه الله لهم من القوة والشجاعة والاخذ فى الامـــور بالعزم والحزم (10) وصل الله أيامهم ونصر أعلامهم (11) وهكذا ينوه بهم ويرفع من ذكرهم فيما بعد هذا ، ويدعو لهم بالعز والتأييد (12) ·

ومهما يكن فان كتابى ابن عبد الملك وابن عذارى يعدان من مفاخـــر

---

1) 848 ويستمر فى النص منوها بهم ومشيدا باعمالهم ·
2) 352 — 3) 354 — 4) 360 — 5) 366 — 6) 371
7) 391 — 8) 399 — 9) 403 — 10) 404 — 11) 420
12) 454 وعلى العكس ما كان عليه ازاء الموحدين انذاك حيث قال فى بعضهم داعيـــا « قبحهم الله » 452 ·

العهد المرينى بل يعدان من مفاخر تراثنا فى بابهما ، ولا نرى لهما مشاكلا فى عهود المغرب السابقة واللاحقة (1) .

وبعدما أتينا بأنموذجين للتاليف فى التراجم والتاريخ نذكر أنه من الالوان الجديدة التى تناولها أدبنا فى القرن السابع ، موضوع الرحلات ، فلأول مرة تعرف أدبنا على هذا اللون الذى يزخر بشتى المعلومات ، وعديد من الشخصيات .

وقد ظهر فى هذا العهد رجلان ، أحدهما من سبتة ، والآخر من مراكش ، انهما ابن رشيد والعبدرى .

فأما ابن رشيد السبتى ، العالم السلفى ، فهو أبو عبد الله محمد بن عمر الفهرى ، الخطيب المحدث ، الناظم الناثر ، المؤلف فى عدة علوم وفنون ، قال فيه ابن خلدون : انه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله ، وقال فيه أبو البركات ابن الحاج البلفيقى : من أهل المعرفة بعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافى مشاركا فى غير ذلك من الفنون ،،، اديبا خطيبا بليغا ، ذاكرا متأدبا ، يقرض الشعر على تكلف ، ويجود النثر ويبصر مواقع حسنه . . . .

ولدا ابن رشيد بسبتة عام سبعة أو تسعة وخمسين وستمائة ، وتثقف

---

(1) وكأن مراكش نثرت بهما جعبتها التى كانت مليئة طيلة العهد الموحدى وهى حاضرة المغرب منذ ما يزيد على قرنين من الزمان .

فبعد انتقال كرسى السلطنة الى فاس ، من العاصمة مراكش بدأ يتقلص ظل النشاط الأدبى عن هذه الى أن خفت صيتها فى القرن الثامن ، فلم نعد نسمع عنها ، كثيرا كما عهدنا منها فيما قبل ، ومع هذا ، فلم تبخل علينا بعلماء أدباء كان وزنهم — على قلتهم — راجحا ، وكان ذكرهم فى الاندلس صائتا ، بل وجدنا منهم من انتقل نشاطه اليها ، مثل ابن عبد الملك ، صاحب الذيل والتكملة ، الذى سلف ذكره ، ومثل الأديب الناظم الناثر ، أبى العباس أحمد بن على المليانى ، صاحب العلامة السلطانية ، بالدولة المرينية ، الذى وصفه ابن الخطيب فى الاحاطة ، بالكاتب الشهير ،، اخذ بحظ من الطب ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضا للشعر ، يذهب نفسه فيه كل مذهب ومن شعره قوله ، اثر حادثة ذكرت فى الاحاطة وغيرها :

العز ما ضربت عليه قبابى ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والزهر ما أهداه غصن براعتى ... والمسك ما أبداه نفس كتابى
فالمجد يمنع أن يزاحم موردى ... والعزم يأبى أن يضام جنابى
فاذا بلوت صنيعة جازيتها ... بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
واذا عقدت مودة أجريتها ... مجرى طعامى من دمى وشرابى
واذا طلبت من الفراقد والسهى ... ثارا فأوشك أن أنال طلابى

بها على اعلامها ، مثل ابن أبى الربيع الاشبيلى النحوى وأبى الخضار ، وكلاهما قرأ عليه القرآن الكريم بالسبع ، كما قرأ غير ذلك فيما سنرى ، وقد تقلبت به الاحوال بين الاندلس والمغرب ، الى أن توفى فى نحو التاريخ الذى توفى فيه ابن عذارى وابن عبد الملك ، أعنى العشرين بعد السبع مائة .

كان ابن رشيد قد توجه الى الشرق ، مبدأ بكتابة رحلته الحافلة عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، فكان فى طريقه ذهابا وايابا ، يأخذ عن العلماء ويأخذون عنه ، ويحضر مجالس علمهم ، وربما سألهم فأجابوه ، وربما جر ذلك الى المناقشة فى مسألة من المسائل ، فسجل ذلك كله فى رحلته ، التى ما زالت قيد الخط ، ويوجد منها أجزاء خمسة كبار .

لقد كان ابن رشيد يحمل تلك الجدوة الأخيرة ، من الظاهرية التى كانت تشع بالمغرب ، على عهد الموحدين ، فتعرض بذلك فى الاندلس الى ما كان يتعرض له أبو حيان فى المشرق ؛ من امتحان أصحاب المذاهب الكبار . فكلاهما كان متحررا فى تفكيره واستنباطه وقد عاد ابن رشيد الى وطنه ، فاستدعى الى غرناطة ، التى كان ظل سلطانها يمتد الى سبتة ، فى بعض الفترات التاريخية ، فواجه بها ابن رشيد تألب المالكية عليه ، والعجيب انه لم يواجه هذا فى المغرب ، الذى كان فى العهد المرينى قد عاد الى المالكية بالكلية فجرت بينه وبين أولئك أحداث لا تهمنا فى قصتنا الادبية .

والمهم أن رحلته من الأهمية بمكان عظيم ، أهلها لان تصبح مصدرا هاما ومرجعا معتمدا ، للدارسين والبحاث فى عهدنا وكأن صاحبها قدر ضخامة مضمونها ، فسماها « ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة ، فى الوجهة الوجيهة ، الى الحرمين مكة وطيبة » فهذه العناوين الطويلة كانت تنم عن محتويات كتبها ، كما سنجد ابن خلدون يفعل فى عنوان كتابه التاريخى العظيم .

فى هذه الرحلة ، نجد من فائداتها ، ما اتصل بالتعريف لرجال من المشرق والمغرب ، لولاها لما كنا نعرف عنهم كثيرا أو قليلا كما نجد منها جوانب عن صاحبها ، ومدى ما كان عليه من علم وثقافة عامة ، جرى ذكر ذلك فى بعض مواقفه مع رجال العلم والأدب ، فهى بذلك المصدر الاول لمن

اراد ان يعرف الشيء الكثير عن ابن رشيد الأديب والعالم .

واسلوبه فيها متحرر غالبا ، الا عندما يتعرض لتحلية رجل أو لتنويه ببقعة مباركة ، فيقول مثلا فى ترجمة شيخه حازم القرطجنى : حبر البلغاء ، وبحر الادباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدا ممن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من منقول ومبتدع . وأما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمنفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارهـــا ، فهو حماد روايتها وحمال أوقارهـــا .

وكذلك نجده قائلا فى تحلية أستاذه ، أبى بكر بن حبيش :

أما النظم فبيده عنانه ، وأما الشعر فان مال اليه توكف له بنانه ، مع تواضع زائد ، على صلة مخبره عائد ، لقيته بمنزله ليوم أو يومين مـــن مقدمى على تونس ، وصادفته بحالة مرض ، من وشء فى رجله عرض ، وعنده جملة من العواد ، من الصدور والأمجاد ، فأدنى وقرب ، وسهل ورحب ، وتفاوض أولئك الصدور ، فى فنون من الأدب كأنها الشذور ، الى أن خاضوا فى الاحاجى ، واستضاءوا بانوار افكارهم فى تلك الدياجى ، فخضت معهم فى الحديث ، وانشدتهم بيتين ، كنت صنعتهما وأنا حديث ،،،

ويقول فى ترجمة لعالم افريقى آخر :

رافق اسمه مسماه ، واشتملت كنيته على معناه ، أبرع الجماعة أدبا ، وأوسعهم طلبا ، حافظ ، لافظ ، ويحكم انواعا من الخط ، كلهـــا رفيع غير منحط تفوق صناعتها ، وتروق نصاعتها ، الى محاسن يعجز عن مجاراتها ومباراتها المفاخر المحاسن ، جمع أنواع الحسن أجمعها اكتعها ، وحاز من كل فضيلة أبدعها وأبرعها ، خط رائق ، ولفظ فائق ، وخلق وخلق تروقك ذاته ، وتشوفك أدواته ، ما رايت فى نجباء أبناء الافريقية ، أجمع منه لفضيلة ، ولا أبرع فى كل خصلة نبيلة ، وخلة جليلة ، مع عفاف وكفاف ، يتصرف كيف شاء فى الروية والاتجال مديد الباع فسيح المجال .

هذه نماذج من نثره الفنى ، يستغل فيها اصطلاحات النحو ، والفاظه فى مثل قوله : « على صلة مخبره عائد » و « أجمعها اكتعها » كما يكرر فيها

بعض الصور فى نحو « ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة » خـط رائق ، ولفظ فائق » « تفوق صناعتها وتروق نصاعتها » « تروقك ذاته وتشوقك أدواته » « أبدعها وأبرعها » « ولا أبرع فى كل خصلة » « مـن منقول ومبتدع » وهذا التكرار كان أشد فى النموذج الاخير ودونه فى الاول الذى فيه « المنفرد بحمل رايتها » و « حمال أوقارها » ...

أما المحسنات اللفظية ، فلا تخلو منها حلية له ، كما نجد هنا فى « حبر وبحر » واختيارات واختراعات » وحياد وحمال « وحافظ لافظ » « وصناعتها ونصاعتها » « ومجاراتها ومباراتها » « وأبدعها وابرعها » « ورائق فائق » « وخلق وخلق » و « تروقك وتشوقك » و « خصلة وخلة » و « عفـاف وكفاف » . والسجع شيء مفروغ منه لازما لازبا عند الكتاب لعهده ، وقبله وبعده ، لا يختلف فيه الغرب عن الشرق .

وفيما عدا هذا فانه فى الرحلة ينطلق غالبا فى سرد الوقائع ، ولا يستجيب للمحسنات والحذلقات اللفظية أو المعنوية . فهذه حادثة من ذلك ، جرت له فى مصر (1) ، مع عالمها ابن النحاس، تلميذ ابن مالك فى النحو ؛ اذ حضر درسا له ، فسأله هذا ، بعد تدخل منه فى مسألة نحوية : من أين قدومك ؟ قال ابن رشيد : قلت من المغرب ، قال : من الاسكندرية ؟ قلت، من أبعد ، قال ، من تونس ؟ قلت ، من أبعد ، فقال ، اذن جوى المغرب ، قلـت نعم ، فقال ، من اى بلاده ؟ قلت ، من سبتة ، فكان أول ما فاتحنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع ؟ قلت ، نعم ، فقال ، ذاك شيخنا ، افادة بوصول كتابه اليتيم ، يريد شرحه لكتاب ايضـاح الفارسى ... ثم قال لى ، أقرأت عليه ؟ قلت ، نعم ، قرأت الجمل والايضاح والكتاب . فلما ذكرت الكتاب ، قال ، فاعبر ، (يعنى حلقة درسه تكريما) ثم ذكر ابن رشيد أنه تلكأ فى هذا العبور ، واستحيى منه ، ولكنه أصر على أن يعبر اليه ، كما قال ؛ فعزم على واقعدنى الى جانبه ، فجلست مغضيا حياء منه ، فقال ، اجلس متسعا ، فجلست وتمادى فى الاقراء ، فاختلسـت الكلام أثناء اقباله على من بين يديه من التلاميذ للالقاء عليهم ، مع الذى كان عن يمينى اختلاسا ، وقلت ، من الشيخ ؟ فقال ، بهاء الدين ابن

(1) أرخها بيوم الاحد 7 رجب عام 684 .

النحاس ، فالتفت الشيخ ، وقد وثبت بين يديه ، فقال ، لم ؟ ارجع الى موضعك ، فقلت ، يامولانا ، لم يعرف المملوك بين يدى من هو ، ولو علم ما جلس هذا المجلس ، وما تكلم ، فعزم على فى العود الى مجلسى ، فعدت ، وأشار بالاطمئنان ، فاطمأننت .

وهكذا نجده فى هذه الحادثة ، يتخلص من كل تصنع ، ويحرص كل الحرص على تصويرها ، حتى فى اللغة التى استعملها معه ابن النحاس ومنها كلمة « جوى » بمعنى الظرفية الداخلية ، المستعملة فى عامية مصر حتى الآن ، وقد وقعت الحادثة فى القاهرة ، ولهذا يعتبر الاسكندرية من المغـــــرب ، فى سؤاله السالف ، وان كان ابن رشيد قال فى المسجد الجامع لمصر . والمعتاد فى رحلته انه اذا أراد القاهرة نص عليها وصفها بالمعزية (1) .

لقد شهد القرن السابع تجاوبا عظيما بين الشرق والغرب ، فابن مالك الجيانى ، كان أستاذا لابن النحاس ، كما تقدم ، وابن النحاس كان استاذا لأبى حيان ، الجيانى أو الغرناطى النفزى الاصل وهذا كان من أساتيذ العالم النحوى المصرى ابن هشام ، كما وردت فى كتبه (2) .

وقد اتصل به ابن رشيد ونقل عنه حكايات ، مثل قوله :

حدثنا أبوحيان ، قال ، حدثنا التاجر أبو عبد الله البرجونى ... قال : كنت بجامع لو لم ، من بلاد الهند ومعنا رجل مغربى ، اسمه يونس ، فقال لي ، اذكر لنا شيئا ، فقلت له ، قال على ... : اذا وضع الاحسان فى الكريم أثمر خيرا ، واذا وضع فى اللئيم أثمر شرا ، كالغيث يقع فى الاصداف فيثمر الدر ، ويقع فى فم الافاعى ، فيثمر السم ، فما راعنا الا ويونـــس قد انشد لنفسه ...

---

1) القصة بالجزء الثالث من رحلته وهو خاص بمصر . ويبدو من الجزء الذى يليه أنه كان عازما على الاقامة بمصر للاقراء لولا أن رفقاءه حملوه على العودة لذمام لهم عليه أن يحفظها كما قال أو نحو هذا . لان مصر وجد بها من العلماء الاعلام من حببوه فى ملازمتهم وان كان بعضهم لم يكن بذلك .

2) رمن أعجب ما قام به هذا العالم الاندلسى ، أنه وضع للاتراك أول كتاب نحوى للغتهم ، ما زال محفوظا بمكتباتهم حتى الآن ، وهو مسجل فى كتابهم « تاريخ الاندلس » لمؤلفه بالتركية محمد لبيب ، وفيه أيضا أنه ألف كتابا سماه « منطق الخرس فى لسان الفرس » وآخر سماه « نور الغبش فى لسان الحبش » كما ألف فى غير هذه اللغات الثلاث ، الى جانب مؤلفاته الحافلة فى العربية كالبحر المحيط ، وكان فى صحبته والده كما يصرح بذلك فى تفســـيره .

وذكر الشعر ، الذى ضمنه أبوحيان بيتين له ...

ومن نماذج ابن رشيد الطليقة ، قوله فى رحلته :

سافرنا على اسم الله وبركته ، الى أن شارفنا مدينة المهدية عند نصف الليل من ليلة الاربعاء المذكور ، واقتضى نظر تجار المركب سلمهم الله ، أن يفرغوا أسبابهم بها ، خوفا من خبر العدو ، قصمه الله ، وأن ينقلوها فى أجفان صغار ، يمكنهم بها المشى بطول الشط ...

وبعد كلام يقول فى وصف المهدية : وعاينا مدينة حسنة ، محكمة البناء ، حصينة الاسوار ، الا أنها قد ألم الخراب بأكثرها ، وقل عمارها ، وذهبت عددها ، وقل عددها ، وقد كان أمرها خبرا سلف ، على ما شهر وعرف ، وبها بابها البرى الحديدى المشهور ، وموضع انشائها البحرى العجيب المذكور ، تخرج منه القطع فى البحر ، عايمة مستوفية لمجاذفها وآلاتها ، وباب برها الحديدى المشار اليه ، قواريره زجاج تتعهد بصب الزيت فيها ، تسهيلا لحركة دورانه ، وفى الباب أثر ضرب من حجر .

ومن وقفاته العلمية فى رحلته ، نجد ما يلى فى رابع :

ذكر غريبة عنت لنا به ، وما عنت ، بل أغنت فى معنى الآية الكريمة واقتنت ، وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيدكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب » .

صحبنى فى الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، الى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا رابغ ، رأيت أمرا عجبا من تخلل الوحوش ، والغزال والارنب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون ، حرام حرام ، والجوارح قد سلست خيفة جاهل ، يتعسف المجاهل ، فقال لى ذلك الشيخ ، تأمل تر عجبا ، هكذا جرت عادتنا فى هذا الطريق ، اذا مررنا به ونحن محرمون ، نجد به من الوحش ما ترى ، فاذا عدنا محلين لم نجد شيئا . فلما عدنا كان كما قال . فبان لى من معنى الآية ، ما لم يكن عندى بالمشاهدة (1) .

1) وهنا لابد أن نشير الى أنه وقع فى الآية زيادة ، لا ندرى ، أكانت من ابن رشيد أمن ناسخ لرحلته ، وهذا هو الغالب ، حيث نقلت الآية هكذا « ليعلم الله من يخافه ورسله بالغيب » بزيادة « ورسله » مع أن هذه ليس من الآية المذكورة ، بل من آية أخرى ، وهى « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله » وهذه من سورة الحديد ، والاولى من سورة المائدة ، مما لم يتنبه له بعضهم .

ومهما يكن فان هذه النماذج الاخيرة ، لا تنسى بعض التأنق فى عبارات منها قليلة .

ولابن رشيد شعر ، قد يتكلفه كما قال البليفيقى . وهذه قصيدة له فى رثاء ابنه محمد بلغت الغاية فى تصنعها وفى مغزاها المؤثر يقول فيها :

شباب توى شابت عليه المفارق ... وغصن ذوى تاقت اليه الحدائق
على حين راق الناظرين بسوقه ... رمته سهام للعيون رواشق
فما اخطأت منه الفؤاد بعمدها ... فلا أبصرت تلك العيون الرواسق
الى الله اشكو فهو يشكى نوازعا ... عظاما سطاها للعظام عوارق
ولا مثل فقدان البنى فجعته ... وان طال ما لحت ولجت بوارق
محمد ان الصبر فيك مصارم ... محمد ان الوجد فيك مصادق

ويكرر النداء وما يليه من تصوير الصبر على الفاجعة ثم يقول :

فان جزعا فالله للعبد عاذر ... وان جلدا فالله للعبد صادق
وتالله مالى بعد عيشك لذة ... ولا راقنى مرأى لعينى رائق
وانى به والذكريات عديدة ... فنبل وفهم للعوائد خارق
فان التفت فالشخص للعين ماثل ... وان استمع فالصوت للأذن طارق
وان أدع شخصا باسمه لضرورة ... فان اسمك المحبوب للنطق سابق
وان تقرع الأبواب راحة قارع ... يطر عندها قلب لذكرك خافق
وكل كتاب قد حويت فمذكر ... وآثاره كل اليك توائق

الى ان يقول :

فلولا الاسى ذاب الفؤاد من الاسى ... ولولا البكا لم يحمل الحزن طائق
يخط الاسى خطا تروق سطوره ... ويمحو البكا فالدمع ماح وماحق
فيا واحدا قد كان للعين نورها ... أكل ضياء بعد بعدك غاسق

وكانت تعاصر ابن رشيد من أهل فاس فاضلة متصوفة ادبية شاعرة الشيخة سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبية ، كتب اليها ابن رشيد بقوله :

سرى نسيم من حمى سارة ... عاد به كل نسيم عاطرا
وجال اقطار الدنا ذكرها ... فسار فيها مثلا سائرا

دائـرة والمجـد قطـب لهـا — دارت عليهـا فلكـا دايـرا

فأجابته بقولها :

وافى قريـض منكـم مذغـدا — لبعـض أوصافكـم ذاكـرا
اطلـع مـن سمائـه انجمـا — ومـن شـذاه نفسـا عاطـرا ؟
اعاد ميـت الفكر من خاطـرى — مـن بعد دفـن فى الثـرى ناشرا
يبهـر طرفـى حسـن منظـره — احبـب بـه نظمـا غدا باهـرا
فقلـت لمـا هالنـى حسنـه — اشاعـرا اصبـح أم ساحـرا
أم روضـة هذى التـى قـد أرى — أم بـدر تـم قـد بـدا زاهـرا
أم ضـرب مـن فمـه سائـل — أم جوهـر اضحـى لنـا ناثـرا
للـه مـا اعـذب الفاظـه — وانـور الباطـن والظاهـرا
يا ابن رشيـد بل أبـا الرشـدا — من لـم يزل طـى العلاء نـاشرا
خذهـا فدتـك النفس ياسيـدى — وكـن لمـن نظمهـا عـاذرا
ما تصـل الانثـى بتقصيرهـا — لان تبـارى ذكـرا ماهـرا
لازلت تحيـى من رسـوم العـلا — ما كـان فيهـا دارسا داثـرا

وبعد ابن رشيد ورحلتـه ، نتناول معاصره وزميله فى الرحـلات ، ابا عبد الله محمد العبدرى ورحلته . والعبدرى هذا لا يهمنا ان كان أصله من قبيلة حاحة التى تحيط بمدينة الصويرة بقدر ما يهمنا انه نشأ نشأتـه العلمية بالعاصمة مراكش التى كان ينتمى اليها (1) .

لقد كان العبدرى من أسرة علم ، فأبوه يحلى بالشيخ الخطيب ، وأخوه الذى رافقه فى رحلته كان من أهل العلم ، والغالب أن تكون تنشئته الاولى العلمية على والده ، وان لم يذكر ذلك ، بـل ذكر صراحة انه كـان بمراكش يأخذ عن رجالها ، وكان على اتصال بالقاضى ابن عبد الملـك ، صاحب الذيل والتكملة ، ويبدو أنه كان يضاهيه فى المرتبة العلمية ، فهو لا يزيد على أن يذكره بقوله : صاحبنا الفقيه الاديب الاوحد . فالتعبير

1) ولا دليل على كونه من حاجة فى هذه الابيات التى يحن فيها الى وطنه وقد أدركه العيد بفاس :

قالـوا تعيـد فى فاس فطب فرحـا — فقلت مـا لى بهـا دار ولا عطـن
فـاس ومكناسـة وطنجـة وسـلا — عنـدى كريـدك لا أهـل ولا وطـن
بغداد قفـر اذا لم تحو لى سكنـا — والقفر بغداد ان أهلـى بـه قطنوا

فهو يفضل القفر ان حل به أهله على بغداد ، وهل هم فعلا حالون بالقفر لا يبقى ما هو أعم ، فلا يستفاد بحال من هذا أن موطنه حاجة ، كما قال ناشر الرحلة المذكورة . الاستاذ محمد الفاسى .

بصاحبنا ، مما يفهم ما استظهرناه فى ذلك . لأنه لم يحله الا بما يحلى بـــه الأقران لا المشيخة .

ويذكر فى رحلته التى ابتداها سنة 688 ، أنه كان فى مقتبل العمر .

واذا كانت رحلة ابن رشيد قد استغرقت ما يربو على أربع سنوات ، فان رحلة العبدرى قد استغرت نحو سنتين ، كما يبدو من سياق رحلته التى لم تكن وقفاتها طويلة ، كما كانت لابن رشيد .

وهكذا فقد بدا رحلته من بلاد حاحة ، ولم يركب البحر الى الأندلس ، كما فعل ابن رشيد ، بل سلك طريق البر ، جنوب المغرب نحو مدينة تلمسان. وبها بدأ كتابة رحلته ، فى نفس السنة التى كان ابن رشيد قد عاد الى وطنه . واستمر فى رحلته الى مليانة سالكا أقاليم الجزائر ، الى تونـــس ، ثم طرابلس ، ومنها الى القطر المصرى ؛ بادئا بالاسكندرية التى وقف عندها ، شأن غيره من المغاربة ، طويلا . ثم توجه الى القاهرة ، فلم تعجبه ، كما لم تعجب غيره أيضا ، فغادرها الى العقبة ومنها الى الحجاز ؛ حيـــث أدى فريضة الحج وزار قبر الرسول ، عليه السلام . ولما قضى فرضـــه ونسكه ، عاد عن طريق فلسطين الى مصر ، التى سرعان ما تركها راجعا الى المغرب . فتوقف بتونس ، بعض التوقف ، ولكنه تابع سيره الحثيث حتى انهاه بوطنه فى لهفة وحنين (1) .

واذا كان ابن رشيد فقيها قبل أن يكون أديبا ، فان العبدرى أديب قبل أن يكون فقيها ، فهو فى نثره وفى شعره ، على السواء ، يمتاز بموهبة فنية ، لم نجدها غالبا لابن رشيد .

وذلك كما نجد فى هذا النموذج من فنه النثرى ، واصفا به الاسكندرية :

مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الاشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كل عنها ظفر الزمان ونابه ، ومل منها جيـــش الحدثان وأحزابه ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وكست لها فى معاملاته سلعة ولا بضاعة ، ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصابرت كيده حتى اضمحل سحره وبطل ، فلم تصغ اذنـــا

1) يعبر عنهما فى قوله ، وقد أدركه العيد بفاس الأبيات السالفة الذكر .